

القيم الأخلاقية وعلاقتها بالسعادة في التصور الإسلامي

" ابن رشد أنموذجا "

Moral values and their relationship to happiness in the Islamic worldview

" Ibn Rushd as a model "

أ.د. زروخي الدراجي *، جامعة محمد بوضياف-المسيلة

Zerroukhi darrdji , University of M'sila

drradji.zerroukhi@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2026/07/01

تاريخ القبول: 2026/01/17

تاريخ الاستلام: 2025/11/03

ملخص:

يتناول هذا البحث القيم الأخلاقية ودورها في تحقيق الطمأنينة والسعادة في التصور الإسلامي، وبالتحديد عند ابن رشد، هذا الأخير الذي يعتقد بأن الفضيلة تستند إلى الوسطية المعروفة في العقيدة الإسلامية، وجعل ابن رشد السعادة هي خير ما، وهي تمام الخيرات وغايتها، وأن السبيل للوصول إليها هو استخدام العلم والدرس وهذا يعني أن ابن رشد في وصفه للفضيلة والسعادة يتفق مع المنهج الذي سبقه إليه من قبل الفارابي وابن سينا باعتمادهما على العقل والدرس، وأعلى درجات السعادة عند ابن رشد هي السعادة الأخروية التي لن تتحقق للإنسان الفاضل إلا في الحياة الأخرى، والأخلاق عند ابن رشد مرتبطة بسلوك الفرد، وغايتها أن يكون عليها الفعل والسلوك الأخلاقي صادر من النفس الإنسانية وفق القيم الأخلاقية، والنفس تكمل البدن، ومنه نجد أن ابن رشد ركز على الوحدة بين النفس والجسم بصورة مطلقة، وارتباط النفس بالعقل هو وسيلة لبلوغ السعادة .

الكلمات المفتاحية: السعادة، القيم، الأخلاق، النفس

Abstract

This research examines moral values and their role in achieving tranquility and happiness in the Islamic worldview, specifically according to Ibn Rushd. Ibn Rushd believed that virtue is based on the moderation inherent in Islamic doctrine. He considered happiness to be the best of all things, the

culmination and ultimate goal of all good, and that the path to achieving it lies in the use of knowledge and study. This means that Ibn Rushd's description of virtue and happiness aligns with the approach of his predecessors, Al-Farabi and Ibn Sina, who relied on reason and study. For Ibn Rushd, the highest degree of happiness is otherworldly happiness, which can only be attained by the virtuous individual in the afterlife. Ethics, in Ibn Rushd's view, are linked to individual conduct, and their aim is for ethical actions and behavior to emanate from the human soul in accordance with moral values. The soul complements the body, and thus Ibn Rushd emphasized the absolute unity between the soul and the body. The connection between the soul and the intellect is the means to achieving happiness.

Keywords: Happiness, Values, Ethics, Soul

1. مقدمة

الحديث عن الأخلاق والقيم في الإسلام هو حديث عن الرسالة الإسلامية في حد ذاتها، ذلك أن الإسلام جاء ليتم مكارم الأخلاق ويدعم محاسن القيم، ويهذب النفس والدوق، ويضبط العلاقات بين الناس، وينشر الخير بينهم، وقبل أن نتعرض لأهمية الأخلاق والقيم باعتبارهما ركيزة من ركائز الحضارة في الإسلام علينا أن نعرف ما لمقصود بالأخلاق والقيم وما قيمتها في التصور الإسلامي؟ ومن أبرز العلماء والمفكرين الذين تناولوا هذه الإشكالية بالتحليل العميق، وكان لهم دور فعال في إصلاح المفاهيم وتطوير المجتمع الإسلامي فيلسوف قرطبة ابن رشد، ونحاول عرض فكره في هذا السياق من خلال تناول الإشكالية التالية: ماهي السعادة؟ وما علاقتها بالقيم الأخلاقية في التصور الإسلامي بصفة عامة وفي فكر ابن رشد بصفة خاصة؟

2. بين الأخلاق والقيم

يجب علينا أن ندرك مبلغ الخطورة في عدم التمييز بين القيم والأخلاق، لأن لكل منهما مجاله، ولا يمكن بأي حال الخلط بين مجال الاخلاق ومجال القيم حتى وإن كانت الأخلاق جزء من القيم، فالقيم تعني الاستقامة، كما جاء في قوله عز وجل ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة الأنعام الآية 161. أي أن دين الله مستقيماً لا عوج فيه، والقيم أيضاً تعني الفضائل الدينية والاجتماعية والأخلاقية والجمالية والمعرفية والمنطقية التي يقوم عليها تفكير الفرد والمجتمع، وعلم القيم هو العلم الذي يشمل الفضائل، وخاصة القيم الأخلاقية، وتعرف مفردة القيمة في اللغة على أنها ثمن الشيء، وتأتي أيضاً بمعنى الاستقامة. (جميل صليبا، 1982، ص214)

أما معنى القيم الإسلامية فهي مجموعة من الأحكام والمعايير الناجمة عن تصوّرات الإسلام للكون والإله والإنسان والحياة، والتي تتكوّن نتيجة تفاعل الفرد والمجتمع مع الخبرات والمواقف الحياتية المختلفة، وعلى أساسها يتمكن الفرد من تحديد أهدافه وتوجهاته التي تتجسّد بسلوكه العملي بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والقيم تعمل على ضبط سلوك الفرد، وترك له مساحة من الاختيار وتمتاز القيم في الدين الإسلامي بشموليتها وتكاملها، فهي تتعدى إلى توجهات الإنسان وكافة شؤونه، ولا تقتصر على أموره الخاصة بالحياة الدنيا، وإنّما تشمل الحياة الآخرة كذلك، كما انها قيم اجتماعية وكونية، إذ تنظم علاقة الفرد بمجتمعه المسلم وتحدد علاقة المسلم مع غير المسلم.

والقيم التي تستند إلى نصوص قطعية الثبوت كالقيم التي تكون في أصل العقيدة والعبادة وكذلك المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا مجال للاجتهاد فيها، أما القيم التي تم استنباطها بالقياس فيمكن الاجتهاد فيها بحسب الزمان والظروف والبيئة وبذلك تمتاز بأنها مرنة تقبل التعديل بما يتماشى مع تغير الأحوال في المجتمع الإسلامي، والملاحظ أن القيم الإسلامية جمعت بين الرحمة والقوة، وبين اللين والشدّة، وهو ما يعرف بالوسطية، يقول عزوجل ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۖ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ سورة البقرة الآية 143.

وتوافق القيم الإسلامية فطرة الإنسان التي فطر الله الناس عليها، فتجمع بين متطلبات الجسد وأشواق الروح دون طغيان جانب على آخر، وما يؤيد ذلك قوله عزوجل ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ سورة القصص الآية 77.

وترتبط القيم الإسلامية برضا الله، فهي منزهة كلياً عن المنافع والمصالح الذاتية الضيقة يقول عزوجل ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ سورة الإنسان الآية 9.

ويتعدى مفهوم القيم مفهوم الأخلاق ويتجاوزه، لأن القيم تشمل السلوك والمعرفة والجمال والمنطق، بينما تقتصر الأخلاق على السلوك الإنساني فقط، فإن كانت الأخلاق تهدف إلى ضبط سلوك الإنسان فإن القيم تضبط سلوك الإنسان وتفكيره ومنطقه كما تضبط أخلاق العلم لديه أيضاً.

ومصطلح الأخلاق من المصطلحات الشائعة والمتداولة بين الناس بمفاهيم مختلفة ووفق تصورات متباينة، ويعود هذا التباين للاختلاف في مصدر الأخلاق عند الناس، وفي اللغة تعتبر الأخلاق

جمع خلق، وهو العادة والسجية والطبع والمروءة والدين، وعند القدماء اعتبرت الأخلاق ملكة تصدر بها الأفعال، وقد يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، فنقول فلان كريم الأخلاق، أو سيء الأخلاق، ويسمى أيضا علم الأخلاق بعلم السلوك، أو تهذيب الأخلاق أو الحكمة العلمية أو الحكمة الخلقية، والمقصود به معرفة الفضائل وكيفية اختيارها، لتزكو بها النفس، ومعرفة الرذائل لتتنزه عنها النفس، ولمبادئ الأخلاق قيمة مطلقة، وهي الأصل الذي ترجع إليه جميع القيم الإنسانية (جميل صليبا، 1982 ص 49).

أما في الاصطلاح فإن مفهوم الأخلاق هو ما يطلق عليه جل فلاسفة الأخلاق العلم الذي يدرس السلوك الأخلاقي الصادر عن الذات الإنسانية أو الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة (عبد الرحمان بدوي، د.ت، ص 185)، وبهذا تغدو الأخلاق مجموعة قواعد السلوك الثابتة التي تصلح لكل زمان ومكان، وتطبق الأخلاق على مختلف نواحي الحياة الإنسانية، فهي القواعد التي يسير وفقها سلوك الإنسان في كل المجالات، وعرف ابن رشد الأخلاق بقوله "إن الخلق هو حال للنفس به يفعل الإنسان أفعاله، والخلق قد يكون في بعض الناس طبعا وفي بعض الناس لا يكون إلا بالاجتهاد، وقد يوجد في بعضهم من غير التعمد كالشجاعة والحلم والعفة والعدل، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة أما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبلخل والجبن والشر" (ابن رشد، 1960، ص 199).

ويميز ابن رشد في هذا التعريف بين طريقتي الاكتساب والفترة، كما أنه يقسم الأخلاق إلى أخلاق مذمومة ومحمودة طبعت طابعا كبيرا وتوسع انتشارها بين الناس. ويرى ابن رشد أن سبب هذا الانتشار يعود إلى غياب الاستعمال الحقيقي للعقل بالتمييز بين الأخلاق الحسنة والأخلاق المذمومة، ونشير هنا إلى أن الأخلاق مرتبطة بسلوكيات الأفراد، وهي من العلوم المعيارية غايتها ما يجب أن يكون عليه الفعل والسلوك الأخلاقي.

ووظيفة الأخلاق هي توجيه الفعل الخلفي إلى ما يجب أن يكون ويمكن التمييز بين علم الأخلاق وفلسفة الأخلاق باعتبار أن علم الأخلاق هو مجموعة القواعد العملية التي تقود السلوك الإنساني إلى ما يجب أن يكون عليه الفعل أما فلسفة الأخلاق فهي النظر في هذه القواعد وتحليلها تحليلًا نظريًا، وهي الفلسفة التي يكون موضوعها قيمة الخير (عادل عوا، 1960، ص 12).

ونعني بالأخلاق أيضا مجموع العادات الموروثة والمكتسبة، وإذا كانت الأخلاق مطلب حضاري كوني فإن الإسلام قدسها، ولم ينف وجودها في غير المجتمع المسلم وشجع عليها وأمر بها، وهذا ما جاء نصا صريحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بين أن الغاية الأولى من بعثته أنه يريد أن يغرس مكارم الأخلاق في نفوس أمته والبشرية جمعاء يقول صلى الله عليه وسلم "جئت لأتمم

مكارم الأخلاق" (أحمد عطية الله، 1963، ص 48)، أي أنه يتعامل بقانون الأخلاق والخلق الحسن، حتى وإن كان هذا الخلق ممارسا قبل بعثته، وعليه فالأخلاق مرتبطة بطبيعة الذات الإنسانية التي يولد عليها الإنسان إضافة إلى ما يكتسبه من حكمة عن طريق تجارب الحياة .

وخير دليل على أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينكر الاخلاق الفاضلة عند باقي المجتمعات هو اعجابه بحلف الفضول الذي كان تجمعا وميثاقا إنسانيا، تنادت فيه المشاعر الإنسانية لنصرة الإنسان المظلوم، والدفاع عن الحق، ويعتبر من مفاخر العرب قبل الإسلام، قال صلى الله عليه وسلم . عن هذا الحلف " لقد شهدت مع عمومي حلفا في دار عبد الله بن جدعان، ما أحب أن لي به حمر النعم " رواه أحمد.

إنَّ الحب والحمية للحق والحرص على تحقيق العدل هو هديه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم للبشرية، فهو الذي طهر المجتمع من التمييز والعنصرية، يقول عليه الصلاة والسلام "أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " رواه البخاري، وهذه القيم والأخلاق ولا شك هي الأخلاق التي ينادي بها إنسان اليوم، بل في كل زمان ومكان، وبها تغني هيئة الأمم وهيئات حقوق الإنسان وتنادي بها العلمانية المعاصرة.

3. أقسام النفس

ترتبط الأخلاق بالنفس الإنسانية ولا يمكن الحديث عن الأخلاق في غياب النفس البشرية، لأن النفس هي التي تلزم بهذه الأخلاق، وتعتبر مشكلة النفس الإنسانية من بين أكبر وأهم المشاكل الميتافيزيقية التي شكلت جانبا لا يستهان به من تفكير الفلاسفة بصفة عامة وفلاسفة المسلمين بصفة خاصة، ويعرف ابن رشد النفس بقوله " هي صورة لجسم طبيعي آلي " (ابن رشد، 1974، ص 10)، فالنفس عند ابن رشد صورة ملتزمة بالجسم، ولا يمكن أن تفارقه، ومن هنا فالعلاقة بين النفس والجسد مثل العلاقة بين الصورة والمادة، وإن فارقت النفس الجسم بعد موت الإنسان يطلق عليها عند المسلمين اسم الروح ورغم أن النفس واحدة إلا أنها في تقلباتها أقسام، وهذا ما جاء نصا صريحا في القرآن الكريم، وفيه نجد التقلبات التالية للنفس:

1.2 النفس الأمانة بالسوء

هذه النفس تحملها غالبية الناس، وتقود صاحبها إلى اتباع الهوى، قال تعالى في كتابه المبين ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَزَمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ سورة يوسف الآية 53.

وما أبرئ نفسي من الخطأ والزلل فأزكها، فنفس العباد تأمرهم بما تهواه، وهواها في غير ما فيه رضا الله، إلا ما رحم ربي فينجيه الله من اتباع هواها وطاعتها فيما تأمره به من سوء، وهذه النجاة ممنوحة لكل من اتبع أوامر الله.

2.2. النفس اللوامة

يعيش حامل النفس اللوامة في صراع ومغالبة بين الحق والباطل وبين الخير والشر، قال عزوجل ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ سورة القيامة 1، 2. ورغم الاختلاف بين العلماء في تفسيرهم لهذا التقسيم الرباني إلا أن الأغلبية منهم يتفقون على النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات وتلوم عليه.

3.2. النفس المطمئنة

وهذه النفس خاصة بالأتقياء الذين امتثلوا لأوامر الله، وبلغوا مرتبة الحمد يقول عزوجل في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ سورة الفجر الآيات 27، 28، 29، 30.

فالنفس المطمئنة هي النفس التي وعد الله تعالى صاحبها بالنعيم لذا فهي أمل وهدف ومبتغى كل محب لله عز وجل، فالطمأنينة محصلة التصديق واليقين بالله، والطمأنينة في الآخرة وليدة الاطمئنان في الدنيا، يقول عزوجل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ سورة الرعد الآية 28.

وهناك اتصال كبير بين النفس والعقل، وهذا الاتصال هو السبيل إلى بلوغ السعادة والنفاذ إلى الشريعة، وعلاقة العقل بالنفس هي التي تحدد طبقات الناس، فلا يمكن بلوغ الأخلاق الراقية والحضارية إلا إذا حكم العقل للنفس وسيطر عليها، وعمل على توجيهها، فالأخلاق هي سمو الإنسان بنفسه.

4. تحصيل السعادة وعلاقتها بالأخلاق والسياسة

تحصيل السعادة مرتبط بالسياسة وليس بالأخلاق فقط فغاية الأخلاق هي الوصول بالنفس إلى أعلى مراتب الفضيلة هذه الأخيرة التي تحكم النفس وتوجهها إلى الصلاح بغية الوصول إلى السعادة الدنيوية والأخروية، وقد بين ابن رشد معنى السعادة وسبل تحقيقها حيث يرى أن السعادة هي "الخير الأقصى وتمام الخيرات جميعا وأن تطلب لذاتها لا شيء آخر" (ابن رشد، 1974، ص 11) ومعنى هذا أن السعادة هي الغاية القصوى للإنسان التي ما بعدها غاية، فالسعادة تطلب لذاتها لا لشيء آخر بعدها.

وبين ابن رشد أن الدين الإسلامي يولي أهمية كبيرة للسعادة الدنيوية والأخروية يقول في ذلك " قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين أخروية ودنيوية " (ابن رشد، 1955، ص 240)

ويعني هذا اتفاق الأدلة الشرعية والبراهين العقلية على إقرار السعادة الدنيوية والأخروية.

ويحاول ابن رشد أن يدلل على وجود السعادة الأخروية معتمداً في ذلك على الأدلة العقلية والشرعية يقول "وبني ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل، منها أن الإنسان أشرف بكثير من الموجودات، ومنها أنه إذا كان كل موجود يظهر من أمره أنه لم يخلق عبثاً، وأنه إنما خلق لفعل مطلوب منه، وهو ثمرة وجود الإنسان" 10. (ابن رشد، 1955، ص 241)

فالإنسان أشرف وأفضل الموجودات، وبالتالي لم يخلق عبثاً بل خلق من أجل غاية، وقد نبه المولى عزوجل على وجود هذا المعنى في جميع الموجودات في كتابه العزيز فقال في كتابه الكريم 11 وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون 12 سورة الذاريات الآية 56، أي ما خلقت الثقلين الجن والإنس إلا لعبادتي وتوحيدي، لا لطلب الدنيا والتكالب عليها وتقتضي السعادة وجوب العبادة القائمة على المعرفة بالخالق يقول عزوجل 13 وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ 14 سورة يس الآية 22.

وبعد أن دلل ابن رشد على وجود السعادة الأخروية بالأدلة الشرعية والعقلية معاً نجده يهتم أيضاً ببيان ماهية هذه السعادة الأخروية، وأين هي من السعادة الدنيوية، فيطلق على ما يتحقق للإنسان من سعادة الدنيا اسم «السعادة المشتركة». هذه الأخيرة تكمن في كمال أفعال النفس الإنسانية. (عبد الحي محمد قليل، 1984، ص 270)

ويذهب ابن رشد إلى القول بأن الشرائع وخاصة شريعتنا الإسلامية قد عرفت من الأمور النظرية مالا بد لجميع الناس من معرفته، وهي معرفة الله تبارك وتعالى، ومعرفة الموجودات الشريفة ومعرفة السعادة، وكذلك عرفت من الأعمال القدر الذي تكون به النفس فاضلة بالفضائل العملية. ومعنى هذا أن السعادة الدنيوية تحصل للإنسان إذا استطاع أن يتحرر من سيطرة البدن، لما له من قوى غريزية وشهوانية، ومن ثم الوقوف على الحقائق الأولى، وعلى رأسها الاتصال بالله سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى ما سماه ابن رشد بالسعادة المشتركة، أشار كذلك إلى ما أسماه بالسعادة الأخيرة أو السعادة القصوى، وهي السعادة الأخروية، فربط بين من تحقق له السعادة المشتركة، وبها تزكو نفسه وبين تحصيل السعادة الأخيرة، ومن لم يتمكن من تحصيل السعادة المشتركة، فتظل نفسه الخبيثة مرتبطة بما لها من شهوات .

والسعادة القصوى لا ينالها كل إنسان، وليست في مقدور كل إنسان، فالذي تتحقق له هذه السعادة يجب أن تزكو نفسه ويتنزه عن الشهوات، وإن كانت النفس خبيثة زادت بها المفارقة خبثاً، لأنها تتأذى بالردائل التي اكتسبت، وتشتد حسرتها في هذا المقام يقول عزوجل 15 أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا

حَسْرَتًا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتَ لَمِنَ السَّاجِرِينَ² سورة الزمر الآية 56، أي يا حسرتي وندامتني على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه، وإنني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه. ويرى ابن رشد أن السبيل للوصول إلى تحقيق السعادة هو استخدام العلم والدرس والتربية (فوضيل بومالة، 1988، ص 126)، أي أن الاعتماد على العقل والدرس وترقية المدارك الإنسانية هو السبيل لتحقيق السعادة.

نستنتج من هذا أن السعادة هي تمام الخيرات وغايتها، وأن السبيل للوصول إليها هو استخدام العلم والدرس، وهذا ما سلكه رسولنا الكريم إذ قام بتربية الصحابة رضوان الله عليهم وعلمهم كيف يبلغون السعادة عن طريق التوحيد والانقياد لأوامر الله يقول عزوجل³ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ⁴ سورة الجمعة الآية 2.

وعمل ابن رشد على ترتيب درجات السعادة بداية بالسعادة المشتركة، وهي تلك الدرجة من السعادة الممكنة للناس جميعاً متى انتهوا عن الرذائل واكتسبوا الفضائل التي اتفقت عليها الحكمة والشريعة. (عبد الحي محمد قابيل، 1984، ص 300)

معنى هذا أن السعادة المشتركة يمكن لأي إنسان الحصول عليها، عن طريق تغليب الفكر والعقل عن الأهواء والشهوات فالسعادة المشتركة تكمن في كمال أفعال النفس الإنسانية، أما النوع الآخر أو الدرجة الأخرى من السعادة الذي قال به ابن رشد فهو السعادة الحقيقية أو السعادة الخاصة، أو ما عرف عند الفلاسفة المسلمين بالاتصال أو السعادة القصوى، وهو ذلك الذي يحدث بعد تجاوز ما أسماه بالسعادة المشتركة، وبفضل حدوث الفضيلة النظرية للإنسان التي تقوم على أعمال الفكر الخالص دون معوقات من جانب البدن بما فيه من غرائز وشهوات، (فرح أنطون، 1953، ص 45)، أي أن السعادة القصوى أو السعادة الأخروية تحصل بعد تجاوز السعادة المشتركة.

ويذهب ابن رشد إلى القول بأن هذه السعادة القصوى يصعب تحقيقها في الحياة الدنيا، لكن قد يبلغها البعض أو القلة القليلة ممن بلغ درجة الحكمة فيتحول إلى إنسان فاضل.

ويربط ابن رشد ربطاً محكماً بين الاخلاق والسعادة والسياسة فهدف السياسة هو تدبير شؤون النفوس وتحسين سلوك الأفراد مما يعني أن السياسة يجب أن تعمل على هيكلة الأفراد هيكلية حسنة.

وأعطى آراءه في طبيعة الحاكم الظالم فرأى فيه الشخص الذي يحكم الشعب من أجل نفسه وليس من أجل الشعب ذاته، وظل ابن رشد في آرائه السياسية متوافقاً مع رؤيته لدور الفلسفة التي

يجب أن تعطى الأولوية إلى جانب للشرعية، فاعتبر أن الرؤساء يجب أن يكونوا من الحكماء أي من الفلاسفة، فالحاكم يجب أن يكون عارفاً بالشرائع التي سنّها المشرّع الأول (النبي) ويكون له القدرة على استنباط ما لم يصرح به الشرع، وبما أن ابن رشد عرف علم السياسة بأنه علم تدبير شؤون المدينة ثم جاء ابن خلدون من بعده وعرف سياسة المدينة بأنها تعني تدبير المنزل أو المدينة بمقتضى الأخلاق والحكمة لحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقائه، فهذا يعني أن الاجتماع ضرورة إنسانية، ولا يمكن تحقيق السعادة بعيداً عن المجتمع، كما لا يمكن أن نعيش داخل المجتمع دون أخلاق وقيم، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش ويحقق السعادة منفرداً وقد يجتمع الناس لأغراض متعددة، إلا أنّ كثيراً من هذه الاجتماعات تعد اجتماعات فاسدة وضالة، وهناك نوع واحد فقط من هذه الاجتماعات، وهو ما يسمى بالاجتماع الفاضل، وهذا الاجتماع يتأسس على الربط بين الأخلاق والسياسة.

وارتبطت الأخلاق بالسياسة ارتباطاً وثيقاً في الإسلام، وصار كلاهما ينشد غاية واحدة تتمثل في إيجاد الفضيلة والسعادة سواء أكانت في المجال الفردي (الأخلاق) أم المجال الاجتماعي (السياسة). ولا تقوم دولة بغض النظر عن المعتقد الديني إلا بترسيخ أسس العدالة فيها، ولا تتحقق هذا الأخيرة إلا بسلطان عادل " والسلطان العادل من عدل بين العباد، وحذر من الجور والفساد، والسلطان الظالم ... لا يبقى ملكه ولا يدوم، فينبغي أن تعلم أنّ عمارة الدنيا وخرابها من الملوك فإذا كان السلطان عادلاً عمرت الدنيا وأمنت الرعايا ... وإذا كان السلطان جائراً خربت الدنيا " (أبو حامد الغزالي، 1988، ص 44)

إن عمارة الأرض وأمان الرعية مرتبطان بعدالة السلطان وفسادها وخرابها مرتبطان بظلمه لهذا عدّها "الغزالي" من كمال العقل فقال " واعلم أيها السلطان وتبين أن ظهور العدل من كمال العقل وكمال العقل أن ترى الأشياء على ماهي، وتدرك حقائق باطنها ولا تغتر بظاهرها " (أبو حامد الغزالي، 1988، ص 44)، فالعدل أمانة على العقل، أي التلازم بين العدل والعقل رغم اختلاف فضيلة العقل وهي العلم والحكمة عن فضيلة العدل وهي الإنصاف إلا أنّ مفهوم العدل يكون انطلاقاً من أعمال العقل، وبه توزن الأفعال وترجح الأقوال، فالعقل هو الضابط لمفهوم العدالة والعدالة هي الأمانة على العقل لذا نجد أنّ "الماوردي" اشترط العدالة في تولي القضاء ومنصب الحكم وفي هذا قال " والشرط الخامس العدالة وهي معتبرة في كل ولاية، والعدالة أن يكون صادق للهجة ظاهر الأمانة عفيفاً عن المحارم متوقياً للمآثم بعيداً عن الريب مأموناً في الرضا والغضب مستعملاً لمروءة مثله في دينه ودنياه " (الماوردي، 1989، ص 89).

وكانَّ العدالة هنا تعني الصدق والأمانة والعفة، واجتناب الريب وتوقي الآثام، وتحقيق التوازن عند الغضب في أمور الدين والدنيا فجعلت شرطاً في الحاكم على اعتبار أنه من يسعى لتحقيق العدالة بين الرعية.

إنَّ ما طرحه شيخ الإسلام "ابن تيمية" وحجة الإسلام «الغزالي» من مباحث في مسألة العدالة يدل على أنَّ العدالة من الأهداف السامية التي تجمع العديد من الخصال والفضائل التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، وملخص أقوالهم يكمن في كون أن العدالة هي: الفضيلة الأخلاقية الشرعية التي تطبع في النفوس البشرية، فتكون عادلة في ذواتها، ومن ثمَّ مع غيرها فتتجسد في أفعال الحاكم وأحكامه، وتنتقل من كونها مسألة أخلاقية إلى مسألة سياسية تحقق الأمن والاستقرار.

5. خاتمة

بين ابن رشد أن للأخلاق أهمية كبيرة في الدين الإسلامي وسلوك الإنسان المسلم هو انعكاس لكل معنى يحمله في قلبه، وكل ما يحمله الفرد المسلم في قلبه يجب أن ينعكس ويظهر أثره على جوارحه، فأفعال الإنسان دائماً موصولة بما في نفسه من معاني وصفات، وصالح المسلم يكون بصالح أخلاقه، لأن الفرع بأصله، فإذا صلح الأصل صلح الفرع، ولهذا كان النهج السديد في إصلاح الناس وتقويم سلوكهم وتيسير سبل الحياة الطيبة لهم يبدأ من إصلاح النفوس وتزكيتها، وغرس القيم الجيدة فيها، وأكد الإسلام على ضرورة إصلاح النفوس، مبيناً أن تغير أحوال الناس من سعادة إلى شقاء، ومن يسر إلى عسر، ومن رخاء وطمأنينة إلى قلق، ومن عز إلى ذل، يعود إلى تغير ما بأنفسهم من معاني وصفات، فمعاني الإسلام التي صنعت العز والحضارة سابقاً شوّهت معانيها مع المسلمين اليوم.

وتُعتبر القيم الإسلامية في نظر ابن رشد بمثابة الجانب الروحي والمعنوي للحضارة الإسلامية، فهي أساسها، وهي التي تضمن صمود وبقاء الحضارة في كل عصرٍ وعبر كل جيلٍ، وتجدر الإشارة إلى أنَّ الحضارة الإسلامية تعتبر من أكثر الحضارات التي أوفت الأخلاق والقيم حقها، ويرى ابن رشد أن الإسلام يبني الأخلاق على فلسفة الفعل، وليس على أساس التصورات فحسب، والأخلاق العملية أهم من الأخلاق النظرية مع وجوب تنزيه الفعل الأخلاقي، وفي الإسلام إما أن تكون أقوالنا كأفعالنا أو تكون أفعالنا كأقوالنا، حتى يحدث الانسجام بين العقل والمنظر والإنسان المطبق.

6. التوصيات

ادراج مقاييس خاصة تركز على القيم الإسلامية وعلاقتها بالحضارة والسعادة في عرض التكوين الخاص بشعب العلوم الإسلامية.

إنشاء مخابر أو مراكز بحث مهمتها إعادة بناء القيم الإسلامية وترسيخها في المجتمع.

7. قائمة المراجع

المؤلفات:

• المؤلفات

- ابن رشد، 1974، رسالة في النفس، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن.
- ابن رشد، 1955، مناهج الأدلة في عقائد الملة، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- ابن رشد، 1960 تلخيص الخطابة، تحقيق عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- أحمد عطية الله، 1963، القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- الغزالي أبو حامد، 1988 التبر المسبوك في نصيحة الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الماوردي أبو الحسن، 1989، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار ابن قتيبة، الكويت.
- جميل صليبا، 1982، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، لبنان.
- جميل صليبا، 1982، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، لبنان.
- عبد الرحمان بدوي، دت، الموسوعة الفلسفية، ج1، بيروت.
- عادل عوا، 1960، القيمة الخلقية، مطبعة جامعة دمشق، سوريا.
- عبد الحي محمد قابيل، 1984، المذاهب الأخلاقية في الإسلام (الواجب-السعادة)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- فرح انطوان، 1953، ابن رشد وفلسفته، دار النشر جامعة الإسكندرية، مصر.